

غوطة دمشق

إحدى عجائب الدنيا عند القدماء

لالباحثة نبيلة القوصي

إخوتي قراء زاوية (معالم وأعيان):

لنتأمل وإياكم دمشق الرائعة بثلاثيتها المميزة: قاسيون، بردى، والغوطة، ولنقف عند حقيقة الخبر في جمال وجلال هذه المدينة العريقة.

فلنصعد جبل قاسيون شمالاً، ولننظر تجاه دمشق القديمة التي نالت شرف مديح النبي المصطفى وسلمح سهلها الواسع المحيط بها بجنان الأم الرؤوم التي تحضن أبناءها المتوزعين في القرى المحيطة: دوما، حرستا، مسرابا، كفرسوسية، وغيرها... ثم يتراءى لنا سهول ممتدة، كسهل المزة والقابون، جميعهم يحتضنون المدينة في دعاء مبجل صادق اللهم بارك في شامنا .. ومن وراء السهول تمتد الجبال، فأى روعة قد امتلكتها يا دمشق! تُجبرين ساكنيك بجمالك وخيرك الساحر أن يرسخوا دوماً الشكر لله بالفعل قبل القول المجرد باللسان .



خريطة غوطة دمشق

اشتهرت غوطة دمشق بخصوبة أرضها وجودة مائها، فهي عبارة عن أشجار مثمرة متنوعة تغذيها مياه منبثقة من الجبال، وتقسم الغوطة إلى: الغوطة الغربية، التي يرويها فرعا بردى (المزاوي والداراني)، تبدأ من مضيق الربوة لتمتد غرباً وجنوباً نحو المزة وكفر سوسية وداريا وصحنايا والأشرفية، وبلدات محاطة بأروع الأشجار، أما الغوطة الشرقية فبدأيتها من دوما نحو الشرق والجنوب، محيطة بدمشق ببساط أخضر رائع: جرمانا، المليحة، عقربا، كفر بطنا، بيلا وعربين، إلى أن تلتقي بنظيرتها الغربية ليكتمل احتضان دمشق ببساتين الحب والعطاء. ويبدأ بساطها الأخضر بالانكماش لتظهر منطقة السهوب، التي تنعدم تدريجياً وتنتهي بالتلال البركانية.

حي المولى دمشق بموقع ممتاز وإقليم معتدل، ورزقها من المياه أنهاراً وعيوناً لتسقي منها غوطتها، ولتصبح زمردة خضراء تدبّ عليها الحياة منذ أيام آدم عليه السلام، حيث ألفتها الإنسان وخصّها بالعمارة والبنيان، وتوالت الحضارات فوق أرضها تاركة فيها شواهد وآثار لا تمحى من الذاكرة.



لنستمع للشيخ المحدث الجغرافي، أبي ياقوت الحموي في (معجم البلدان):
 الغوطة: بالضمّ ثم السكون، وطاء مُهملة، وهو من الغائط (و هو المطمئن من الأرض)، وجمعه غيطان وأغواط، وقال ابن شمسيل: الغوطة هي الوهدة من الأرض المطمئنة، وقال ابن الأعرابي: الغوطة مجتمع النبات، والغوطة: استدارتها ثمانية عشر ميلاً، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، لا سيما

شمالها، ومياهها خارجة من تلك الجبال ممتدة فيها في عدة أنهر، فتسقي بساينها وزروعها، والغوطة كلها أشجارها متصلة.. وهي بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً.

وقال البدرى في (نزهة الأنام في محاسن الشام):

وغوطتها الجامعة للمحاسن لا تُستقصى، وقد جاء في الخبر عن كعب الأحبار رضي الله عنه: ((غوطة دمشق بستان الله في أرضه))، وفضائل الشام كثيرة، ومحاسنها جمة غزيرة، وبركاتها مشهورة، وأخبار خيراتها مأثورة، ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاها وروضاتها وقطوفها الدانية للمتفكر في منزهاتها..

وقال المحدث المؤرخ الذهبي: أجمع سُوح الأرض والأقطار أن غوطة دمشق من منزهات الدنيا!

أما الرحالة الشهير برحلاته، ابن جبير، ٦٢٤ هـ، فقد وصف دمشق قائلاً: " ودمشق حرسها الله تعالى، هي جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، قد تزينت أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى بها المسيح وأمه، صلى الله عليهما.. قد امتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، صدق القائلون عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بجيث تحاذيها.

تغنى بها الشعراء والحكماء والعلماء، وكثير من العباد الذين سعدوا فيها، وما يميز دمشق هو وسطية واعتدال مناخها الطبيعي والديني، لتجد أن التراحم على سُكناها ليس بغريب! ومعاداة الأعداء منذ الأزل لطمع وحسد وحقد ليس بعجيب!



وإن من حق دمشق على القادمين إليها من أنحاء العالم، في الحاضر والمستقبل، وعلى أبنائها المقيمين فيها، أن يصونوا تراثها وتراثها وشجرها وماءها .. ولا يكون ذلك إلا بعمارة الإنسان قبل الديار، وتألقه الروحي من الداخل، نبدأه بالحمد والشكر والامتنان على سُكناها، ونحافظ عليها بالعمل الدؤوب مع جهاد النفس لتتوافق مع رضى سيد الأكوان، نصل حينذاك بإذن الله إلى مباحة سيد الأخلاق لترسيخنا لمنهجه الصحيح، الذي لا إفراط ولا تفريط فيه.

هذه هي دمشق، يا إخوتي، قد سكنها أقوام وأقوام منذ بدء الخليقة، من الكنعانيين، والفينيقيين، والفرس، واليونانيين، والروم، ومن ثم المسلمين، من أمويين وعباسيين وسلجوقيين وأيوبيين وأتراك ... وهكذا، في دائرة من دوائر الحياة .. فلمهم حقاً هو ترسيخ منهج نبينا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولتنظروا يا أهل الشام عمّن تأخذون شريعتكم وعباداتكم وأخلاقكم ...؟

وبالمختصر، فغوة دمشق أرضٌ منبسطة واسعة، يرتفع سطحها عند أطرافها الشمالية والغربية، وتأخذ في الانخفاض تدريجياً نحو الشرق .. والأروع عندما ترى انتشار قبور الصحابة والعلماء الأجلاء، كالداراني والفزاري والخولاني وغيرهم الكثير فيها.

اللهم احفظ الشام وأهل الشام ... اللهم ردهم إليك رداً جميلاً يا الله يا الله يا الله ..

المصادر والمراجع:

معجم البلدان / للحموي [٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م]

نزهة الأنام في محاسن الشام / للبدري